

رسالة أهل إفريقية في الشكوى؛ دراسة موضوعية فنية

رائدة محمود أخوزمية *

ملخص

تأتي أهمية رسالة أهل إفريقية إلى الخليفة هشام بن عبد الملك من أنها الشاهد الوحيد على شكوى إفريقية من سياسة ولاية الأمويين وعمالهم؛ استطاع مرسلوها القيام بثورة في بلادهم، أحكموا بعدها قبضتهم على المنطقة في فترة زمنية محددة، وأزالوا منها مظاهر الحكم الأموي.

يعنى هذا البحث بدراسة الرسالة من الناحيتين الموضوعية والفنية؛ إذ حاول في الدراسة الموضوعية أن يقف على المظالم التي عاناها أهل إفريقية من سياسة عمال الأمويين وولاتهم، وطريقة تعاملهم مع هذه المظالم، وردود أفعالهم تجاهها. كما حاول في الدراسة الفنية أن يظهر دور الضمائر، وأسلوب الشرط، والقول في التعبير عن معاناة أهل إفريقية.

الكلمات الدالة: رسالة، أهل إفريقية، شكوى.

المقدمة

توجهت الأنظار من جديد إلى إفريقية، وكان أهلها منذ فُتْحها من "أسمع أهل البلدان وأطوعهم"⁽⁷⁾؛ إذ سار فيهم ولاية الأمويين سيرة حسنة، وأخضعوا البربر، فألفهم الأفارقة⁽⁸⁾. وظلوا كذلك إلى أن وليهم يزيد بن أبي مسلم، كاتب الحجاج ووزيره، ليزيد بن عبد الملك سنة (102هـ)، فأساء فيهم السيرة، وأراد أن يضع الجزية عن أسلم من أهل الزمة منهم، تأسياً بما فعله الحجاج في العراق⁽⁹⁾، ولما شرع في ذلك تأمر عليه مسلمو البربر، فقتلوه وولوا عليهم سلفه محمد بن يزيد الأنصاري⁽¹⁰⁾. وكتب الثوار إلى الخليفة: "إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى الله والمسلمون فقتلناه وأعدنا عاملك"⁽¹¹⁾.

وتكررت ثورة الأفارقة من جديد في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك سنة (122هـ) حين أساء عمر بن عبيد الله المرادي، عامل ابن الحجاج، والي هشام، على طنجة السيرة فيهم، فأراد أن يخمس البربر رغم إسلامهم⁽¹²⁾. إلا أن الأفارقة في عهد هشام لم يجنحوا للثورة والقتل كما فعل أسلافهم، وآثروا السلم على العنف في البداية، فتوجه وفد من بعض شيوخ قبائلهم ووجهائها، بلغ عددهم أكثر من عشرين شيخاً برئاسة ميسرة المطغري إلى دمشق لمقابلة الخليفة، فصعب عليهم الأمر؛ فأتوا (الأبرش) الذي منعهم من مقابلته، فقالوا: "أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا ويجنده، فإذا أصاب نفلهم دوننا وقال: هم أحقّ به؛ فقلنا: هو أخلص لجهادنا، لأننا لا نأخذ منه شيئاً، إن كان لنا فهم منه في حلّ؛ وإن لم يكن لنا لم نرده. وقالوا: إذا حاصرنا مدينة قال: تقدّموا وأخرّ جنده، فقلنا: تقدّموا، فإنه ازدياد في الجهاد، ومثلكم كفى إخوانه، فوقيناهم بأنفسنا

بدأ اتصال المسلمين بأفريقية منذ السنة الخامسة للهجرة، حين أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه بالهجرة إلى الحبشة فراراً من تعذيب قريش واضطهادها، وحين وصل المهاجرون هناك، أحسن النجاشي إليهم، ووثق صلته بهم فأعلن إسلامه⁽¹⁾. وبعد أن احتل عمرو بن العاص مصر سنة (20هـ)، استأذن عمر بن الخطاب في غزو إفريقية فمنعه من غزوها قائلاً: "لا يغزوها أحد ما بقيت"⁽²⁾، فإنها "مفرقة غادرة مغدور بها"⁽³⁾ وذلك أن أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئاً ويغدرون به كثيراً، وكان ملك الأندلس صالحهم ثم غدر بهم. وتجدد العزم على فتح إفريقية في أيام عثمان بن عفان سنة (27هـ) فأمر واليه على مصر آنذاك عبدالله بن سعد بن أبي السرح بفتح إفريقية، ونقله خمس الخمس من الغنيمة⁽⁴⁾. وتحقق لابن أبي السرح الفتح، واجتمع أهل إفريقية على الطاعة، وحسن إسلامهم⁽⁵⁾؛ فلم يصل إلينا منذ هذا الفتح خبر عن ثورة أو خروج عن الطاعة في إفريقية إلا ما كان من جند ابن أبي السرح الذين سخطوا عليه أخذ خمس الخمس، وشكوه إلى الخليفة الذي قام بعزله، وعيّن عليهم أميراً آخر كما أرادوا بعد أن قسم عليهم النفل⁽⁶⁾.

ولما استقر الأمر في المشرق، وآلت الخلافة إلى بني أمية،

* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة الهاشمية، الأردن. تاريخ استلام البحث 2011/11/15، وتاريخ قبوله 2013/5/29.

وسياسة الأمويين في إفريقية. والثالثة أنها كانت سبباً في قيام أول ثورة في الإسلام في إفريقية، استطاع مثيروها إحكام قبضتهم على المنطقة في فترة زمنية محددة، وإزالة مظاهر الحكم الأموي فيها.

مصادر الرسالة:

أما عن الرسالة، فلم يذكرها من القدماء، فيما أعلم، سوى اثنين، وأولهم الطبري الذي ذكر الشكوى في الأحداث المشهورة التي كانت سنة (27هـ). أما ثانيهم، فهو ابن الأثير، الذي أورد الشكوى في معرض حديثه عن انتفاض إفريقية وفتحها ثانية⁽¹⁷⁾. وقد يحسن التنبيه هنا على أن الأعمال التي عانيت بأخبار الأندلس والمغرب، كمعجب المراكشي في تلخيص أخبار المغرب، وبيان ابن عذاري المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، وتاريخ ابن خلدون، لم تذكر الرسالة، واكتفت في الحديث عن الثورة التي أشعلها أهل إفريقية. ويمكن أن يكون هذا السكوت متعمداً، أي أنه لم يرق لهم ربط إفريقية بالخنوع والاستسلام، كما لم تستطع الكتب، المذكورة أعلاه، أن تكرر ما كتبه مؤرخا المشرق عن هذه الثورة، فكل ما كتبه يوحى بأن الأفارقة ثاروا بتحريض من الصفرية، وبذلك ارتكبوا عملاً يخالف الدين.

الدراسة الموضوعية للرسالة:

أولاً: المظالم التي ارتكبتها عامل هشام بن عبد الملك في إفريقية:

وإذا تركنا الحديث عن الرسالة من الخارج، ونظرنا فيها من الداخل، فإننا نجد في الظاهر رسالة إعلانية يصف فيها المشتكون بحرارة ما حل فيهم من جرائم لا يمكن السكوت عنها من جراء سياسة عمر بن عبيدالله المرادي فيهم. ويذكر أن أصوات الشكوى من عمال بني أمية كانت قد ارتفعت في عصرهم، حتى انبرى الشعراء وغيرهم يعبرون عن ظلم العمال والولاة ومعاناة الرعية في مقطوعات وقصائد ورسائل وخطب، لاقى بعضها صدى في نفس الدولة، وذهب بعضها الآخر هباء في الآفاق⁽¹⁸⁾.

حاول أهل إفريقية في شكواهم أن يبسطوا القول للخليفة في سياسة عامله عليهم، فتضمنت شكواهم قضايا عدة، منها ما تعلق بسياسة عمر المرادي العسكرية فيهم، ومنها ما تعلق بسياسته الاقتصادية، وآخرها تعلق بسياسته الاجتماعية.

سياسة المرادي العسكرية:

تمثلت سياسة المرادي العسكرية في أهل إفريقية في

وكفيناهم. ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا، فجعلوا يبقرونها على السخال يطلبون الفراء البيض لأمير المؤمنين، فيقتلون ألف شاة في جلد، فقلنا: ما أيسر هذا لأمير المؤمنين! فاحتلنا ذلك، وخليناهم وذلك. ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كلَّ جميلة من بناتنا فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنة، ونحن مسلمون؛ فأحببنا أن نعلم: أئن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا؟⁽¹³⁾.

ويظهر من الرسالتين أن الأفارقة كانوا يحسنون الظن بالخليفة؛ فالأفارقة في عهد يزيد لم يخرجوا على الدولة؛ لأنهم كانوا يدركون أن عامل الخليفة لم يكن يده وسوطه، وأن ما نزل فيهم من ظلم صدر عن عامل الخليفة لا عن الخليفة نفسه، وهذا ما اعتقده الأفارقة في عهد هشام بداية، فحين استثارهم أهل العراق على الخليفة ردوا عليهم قائلين: "إنا لا نخالف الأئمة بما تجني العمال، ولا نحمل ذلك عليهم، فقالوا لهم: إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك. فقالوا لهم: لا نقبل ذلك حتى نبورهم"⁽¹⁴⁾.

وقد تحقق ظن الأفارقة بالخليفة يزيد بن عبد الملك، فأقرهم على ما فعلوا، وعالج ثورتهم باللين، وكتب إليهم يصانعهم: "إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم، وأقر محمد بن يزيد على إفريقية"⁽¹⁵⁾. أما ظنهم في الخليفة هشام بن عبد الملك فلم يكن في محله؛ فقد طال انتظارهم للخليفة، وخاب رجائهم في مقابلته، وعادوا إلى إفريقية بعد أن كتبوا أسماءهم في رفاع، ورفعوا إلى الوزراء، وقالوا: هذه أسماؤنا وأنسابنا؛ فإن سألكم أمير المؤمنين عنّا فأخبروه، ولم يسأل عنهم هشام إلا بعد أن خرجوا على عامله فقتلوه، واستولوا على إفريقية⁽¹⁶⁾، بعد أن كانوا (من أسمع أهل البلدان وأطوعهم).

وعلى الرغم من أن الرسالتين صدرتا عن أهل إفريقية، وسجلتا بعضاً من انتهاكات الأمويين في سياستهم، إلا أنهما اختلفتا في الهدف والغاية والنتيجة؛ فكانت غاية الأفارقة من الرسالة الأولى، إعلان الولاء للدولة، وتبرير فعلتهم بعامل يزيد بن عبد الملك، وتأكيد رفض الظلم والخروج على تعاليم الإسلام، ونتج عنها القضاء على الوالي، وتحقيق العدالة. أما الغاية من الرسالة الثانية، فكانت الشكوى من سياسة العامل، وإعلان رفضهم لهذه السياسة لا سيما وأنها تعارضت مع سياسة الإسلام وتعاليمه، إلا أن النتيجة لم تكن كما يشتهي المشتكون، إذ لم تجد الشكوى آذاناً صاغية من الخليفة، مما أدى إلى عودة أهل إفريقية إلى ديارهم، والخروج على عامل يزيد بن عبد الملك، والاستيلاء على إفريقية.

وتأتي أهمية الرسالة الثانية / الشكوى من جهات ثلاث، أولها أنها الأثر الوحيد الباقي من شكوى أهل إفريقية ولاة بني أمية وعمالهم، إذ لم أقع، فيما بحثت فيه من مصادر على شكوى لأهل إفريقية غير هذه. والثانية أنها تسلط الضوء على

ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كلَّ جميلة من بناتنا)، فقد عمدوا إلى بنات البربر الصغار دون المراهقة، فسلبوهن، وهذا مما أغضب أهل أفريقية، وألهب شرارتهم.

ثانياً: موقف أهل أفريقية من مظالم عمر المرادي فيهم:

لم يرض أهل أفريقية بسياسة والي هشام وعامله فيهم، وصبروا ما وسعهم الصبر زمناً، وأقنعوا أنفسهم بالرضى بواقعهم المرير، وأخذ الوالي وعامله يحتجون بحجج يثبتونهم بها على الولاء والطاعة للخليفة، ويمنعونهم من الخروج على الدولة مادام في نظرهم أن الخليفة يحكم بشرع الله، ولا يقر عماله على ظلمهم، ولا يؤخذ الخلفاء بأعمال ولاتهم وعمالهم، خاصة أنه لم يثبت لهم أن الخليفة على علم بانتهاكات ولاته وجرائمهم. ومن هنا فقد نظر الناس إلى الظلم الواقع عليهم من جانبه المشرق، فهو على العكس، لن يحمل لهم خسارة بقدر الربح والمكاسب التي سيجلبها لهم.

فحين أمرهم عمر المرادي بأن يكونوا في المقدمة عند مواجهة العدو، أجابوا قائلين: (تقدّموا، فإنه ازدياد في الجهاد، ومثلكم كفى إخوانه، فوقيناهم بأنفسنا وكفيانهم)، فقد امتثلوا لأمره، ودعوا بعضهم بعضاً لتنفيذ الأمر (تقدّموا)، ولم يكتفوا بذلك؛ إذ يبدو أنهم خشوا على أنفسهم التراجع والتقهقر، فبادروا إلى تذكيرها بأن هذا في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، وعليه فإن العاقبة خير في حال الفوز أو الشهادة (ازدياد في الجهاد)، كما استحضروا الآيات والأحاديث التي تحض على أخوة الدين، ونصرة المسلمين بعضهم بعضاً، من مثل قوله تعالى: "إنما المؤمنون إخوة"⁽²²⁾، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "المؤمن للمؤمن كالبنيان"⁽²³⁾، ولما كانوا ممن يحرصون على بقاء كلمة الإسلام عالية، ويحاربون كل ما من شأنه أن يضعفها، لم ينسوا قوله عز وجل: "واعتصموا بحبل الله جميعاً"⁽²⁴⁾؛ إذ رأوا في إجابة أمر عاملهم بقاء لهم مؤتلفين غير مختلفين، وفي اجتماعهم واتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم، ويتمكنون من كل أمر من الأمور، وفي افتراقهم يختل نظامهم وتتقطع روابطهم ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام⁽²⁵⁾، وهم كانوا آخر من يفكر بضرر الدولة. لقد أخذ أهل أفريقية من الأقوال السابقة حجةً ومسوغاً ليحموا جند العرب، ويكفوهم مؤونة التعرض للسلب أو القتل، أليسوا والعرب أخوة في الدين؟! (ومثلكم كفى إخوانه)، ولا يبعد، وهذه طريقتهم في التفكير بالأمر، أنهم أقنعوا أنفسهم بأنهم أكثر شجاعة من العرب؛ ولذا آثرهم ولي الأمر ليكونوا حصناً منيعاً، وهذا مما يفخر به كل مجاهد، (فوقيناهم بأنفسنا وكفيانهم).

نقطتين: شكوا في الأولى سياسته في تشكيل الجيش وتوزيع المقاتلين عند ملاقات العدو، (فقالوا: إذا حاصرنا مدينة قال: تقدّموا وأخر جنده)، وفي ذلك دليل واضح على إهانته لهم وتحقيرهم، والتمييز بينهم وبين العرب، إذ جعل العرب في مؤخرة الجيش، وقدم البربر الأفارقة ليكونوا الضحية الأولى للحملات العسكرية لتعريضهم للنهب أو للقتل.

وشكوا في الثانية سياسة المرادي في توزيع النفل فيهم، إذ لم يكتف عمر المرادي بما فعل أعلاه، بل أنكر فضلهم في الجهاد عند تقسيم النفل، فحرمهم منه مدعياً أنه حق جنده العرب الذين أخرجهم، فقالوا: (إن أميرنا يغزو بنا ويجنده، فإذا أصاب نفلهم دوننا وقال: هم أحقّ به)، ويذكر أن عمر المرادي عاملهم الذي كان مثالاً لسوء السيرة والاستغلال، "أراد أن يخمس البربر رغم أنهم من المسلمين وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله"⁽¹⁹⁾.

سياسة المرادي الاقتصادية:

حرص ولاة بني أمية على جمع الأموال لإرضاء الخلفاء، وإشباع رغباتهم؛ ولذا تعسفوا وأساعوا السيرة في الرعية، فقال وفد أهل أفريقية في شكواهم: (ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا، فجعلوا يبقرونها على السخال يطلبون الفراء البيض لأمير المؤمنين، فيقتلون ألف شاة في جلد). فالأمويون لم يكتفوا بما كانوا يجمعونه من ضرائب، وبما كان يردهم من غنائم وتحف وطرائف مغربية، بل شقوا على أهل أفريقية، فطالبوهم بأردية ناعمة، تصنع من جلود سخال الضأن أول ما تولد قبل أن يغلظ صوفها بغلظ عظمها ويخشوشن بالأرض والهواء، وكانوا يطلبونها عسلية الألوان غير مصبوغة ولا ملونة، ورغم علمهم بأن اللون العسلي نادر في الغنم، قليل في الضأن، إلا أنهم كانوا يبحثون عن الجلود العسلية في السخال ليتخذوا منها الجيب الناعمة لملوكتهم وكبرائهم ولأنفسهم، ولما كان يصعب عليهم إيجاد السخال الحديثة الولادة، وإذا وجدوا بعضها فلا يكفي، صاروا يختارون من غنم البربر التي يهجمون عليها ويغصبونها النعاج التي على وشك الولادة، فيشقون بطونها بحثاً عن هذه السخال العسلية، ف"كانت الصرمة من الغنم تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها، ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه"⁽²⁰⁾.

سياسة المرادي الاجتماعية:

ولم يكن عمر المرادي وغيره من الولاة يسعون للثياب المغربية النفيسة فقط، بل كانوا يطالبون أهل تلك البلاد بالوصائف البربريات أيضاً⁽²¹⁾، كما يتضح من قول المشتكين:

وإيمانهم بأنه لا يجوز أن يُحمل على الأئمة أعمال ولاتهم، إلى أن يفدوا إلى دمشق لمقابلة الخليفة، ومعرفة موقفه. وكان خروجهم للقاء الخليفة مدفوعاً بغيرتهم على الدين، ورفضهم أن تنتهك قوانينه، وغيرتهم على كرامتهم وكرامة نسائهم.

وبعد، فقد نظر أهل إفريقية إلى سياسة ولاية الأمويين فيهم، فكانوا إذا ظلموا بأمر نظروا إلى وجهه الإيجابي لا السلبي؛ ولذا ظهروا في الشكاوى الثلاث الأولى (التقدم، والنفل، واستنزاف الأموال) بمظهر الصابر الراضي مادام ظلمهم يربح تجارتهم ولا يخسرها، ويزيدهم أجراً ولا ينقص منه شيئاً. وظهروا في آخر الرسالة بمظهر الراض المتعجب مما يحدث، الحكيم في تصرفه؛ فأروا أن يفدوا على هشام فيخبروه.

ولما وفدوا على هشام صعب عليهم لقاءه، فحملوا كاتبه الأبرش شكواهم، ولما لم يعرهم اهتماماً، وتركهم ينتظرون مقابلته حتى ضاقت بهم الحال، ونفدت مؤونتهم، طفق بهم الكيل، وعادوا إلى بلادهم وقد قر في قلوبهم قول الخوارج: "إنما يعمل هؤلاء (الولاة والعمال) بأمر أولئك (الخلفاء)"⁽²⁸⁾.

ومن هنا، كانت غيرة أهل إفريقية على الدين، ورفضهم الشديد أن تنتهك حرمة أولادهم، وكان سخط أهلها على ولاية الأمويين وعمالهم ثانياً، وكان اتفاقهم مع الخوارج بمبادئهم التي تدعو إلى الثورة على الظلم، والخروج على الخليفة إذا ما ارتكب ذنباً، ولا تميز بين العرب وغيرهم ثالثاً، وراء قيام أول ربيع إفريقي في الدولة الأموية، نتج عنه استقلال إفريقية، والقضاء على الحكم الأموي السابق.

الدراسة الفنية للرسالة:

لم يستطع أهل إفريقية مقابلة الخليفة هشام بداية، فأروا أن يرسلوا له رسالة يطلعوه بها على حالهم، ويسألوه الرأي فيما عرف من أمرهم، ولما كان الوفد يشعر بخطورة ما هم عليه، وبضرورة أن يعرف الخليفة بسياسة عماله فيهم، كان لا بد من أن يتأكدوا من أن الرسالة ستصل إليه، يقرأها ويعي ما بها، ثم يتصرف؛ ولذا اختاروا من أفعال النقل اللفظي فعل الأمر (أبلغ)، وبه قاموا بتكليف حاجب هشام وكاتبه الأبرش بنقل الرسالة، وأوجبوا عليه التأكد من إيصالها للخليفة بعينه وليس لأحد غيره، وهذا ما يفسر عدم استخدامهم للفعل (بلغ) الذي قد يكون أكثر استخداماً؛ إذ الفعل الأخير لا يوجب على الوسيط الذي ينقل الرسالة التأكد من وصولها للمعنيين جميعاً، ومن هنا قال - صلى الله عليه وسلم - في حجة الوداع: "ألا هل بلغت"⁽²⁹⁾، ولم يقل (أبلغت) لأنه يتعذر عليه - صلى الله عليه وسلم - أن يتأكد من أن كل شخص وصله البلاغ. ومما يؤكد رغبة الوفد أن يصل البلاغ لهشام لا لأحد من حاشيته إتيان الفعل (أبلغ) بـ (أمير المؤمنين)،

وإذا كانت الأخوة واجتماع المسلمين فكرتين حاضرتين في أذهان أهل إفريقية، فإن العدل والمساواة كانتا فكرتين مغيبتين عن ذهن المرادي حين عرّضهم للهلاك، ثم احتكم لعصبية واعتداده بالعرق العربي، فأثر عليهم جنده من العرب، وحرّمهم النفل، وما كان جوابهم إلا أن قالوا: (هو أخلص لجهادنا لأننا لا نأخذ منه شيئاً، إن كان لنا فهم منه في حل؛ وإن لم يكن لنا لم نرده). لقد أقتنعوا أنفسهم أن في تنازلهم عن حقهم في النفل، وهم من خاطر بأنفسهم استرضاء للعامل، الأجر العظيم؛ فهم لم يخرجوا إلا لتكون كلمة الله هي العليا، ولم يكن القصد الدنيوي والمكاسب المادية من أولوياتهم عند الخروج للجهاد. ولم يستطع أهل إفريقية التخلص من وسوسة النفس البشرية، وحبها للمال فـ "المال والبنون زينة الحياة الدنيا"⁽²⁶⁾، وحتى يحصنوا أنفسهم من الخضوع لرغباتها أظهروا أنفسهم بمظهر الجاهل في مدى استحقاقهم لهذا النفل، وأوقعوها في حيرة؛ فإن كان لهم حق في النفل، فهم متنازلون عنه حتى لا يذهب أجر الخروج ابتغاء رضوان الله، وإن لم يكن لهم حق في النفل، فالمرادي في حل، وله أن يوزع النفل كما يرى لا سيما وأن الإسلام أجاز لولي الأمر التنفيل لمن يشاء بالحق⁽²⁷⁾، وعلى الرغم من أنهم كانوا أحق بالنفل من جيشه بما حصل لهم من بلاء، وبما أظهروا من نكايّة، إلا أنه حرّمهم النفل، وهم غضوا الطرف طمعاً بالريح الأكبر.

لم يعان أهل إفريقية من الخليفة هشام ظلماً مباشراً، وكان كل ما تعرضوا له بيد الولاة والعمال، وانطلاقاً من قاعدتهم بعدم أخذ أولي الأمر بجريرة الولاة والعمال، فقد أقتنعوا أنفسهم بأن استنزاف أموالهم في سبيل متعة أمير المؤمنين أمر يحتمل، وقالوا: (ما أيسر هذا لأمير المؤمنين! فاحتملنا ذلك، وخلصناهم وذلك). وفي إجابتهم هذه أمران: أولهما، زهد واضح بمتاع الدنيا، وإن كان من الغالي والنفيس. وثانيهما، إقرار باستحقاق الخليفة لهذا التنازل؛ إذ لم يجدوا حتى هذه اللحظة ما يدفعهم للخروج عليه، وقلب ظهر المجن له، وبالتالي فطاعته واجبة.

لم ير أهل إفريقية الخروج على عمالهم، ولم ينزعوا يداً من طاعتهم؛ إذ لم يعدوا ما تعرضوا له منكرًا محققاً لقواعد الإسلام، ونظروا إلى الأمر على أنه خسارة مادية زهدوا فيها أمام ثواب عظيم طمعوا به. لكنهم لما رأوا المرادي وغيره يستأثرون بكل فتاة بارعة الحسن، يسترضون بها الخليفة وحاشيته، لم يستطيعوا الصبر، أو التبرير لأولي الأمر فعلتهم هذه، لا سيما وأن ارتكاب المعصية واضح بين فيها، فقالوا: (لم نجد هذا في كتاب ولا سنة)، وما أثارهم أكثر أنهم مسلمون؛ فهل يحل لمسلم أن يستحل مسلمة؟ وأرادوا أن يعلموا (أعن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا؟). فهدتهم حكمتهم، وجنوحهم للسلم،

وتأتي الضمائر في الجزء الثاني من الرسالة (مظلمة المال والنساء) لتعرض لعلاقة جديدة بين طرفين آخرين مختلفين؛ السلطة، ممثلة بالولاة والعمال، والرعية. وما زال ضمير المتكلم (نا) في حديث الوفد عن أموالهم وبناتهم، وذلك حين قالوا (ماشيتنا/ احتملنا/ خليناهم/ سامونا/ بناتنا/ أحببنا)، يعبر عن الطرف الضعيف المغلوب على أمره، في حين أن (واو الجماعة) في الأفعال (عمدوا/ يبقرون/ يطلبون/ يقتلون/ ساموا/ يأخذوا) أظهرت أعمال الولاة والعمال المتنفذين، مالكي زمام الأمر.

ونظرة إلى الأفعال المتعلقة بكل طرف، نجدها تؤكد التباين بين الطرفين، إذ تظهر ضعف الطرف الأول وقهره في مقابل قوة الطرف الآخر وجبروته؛ فالفعلين (احتملنا/ سامونا) يحملان معنى القهر والجبر، فالأفارقة تحت شعار حسن الظن بالخليفة أجبروا أنفسهم على القبول بالظلم، وبقوة الآخر فرض عليهم أخذ بناتهم، ونتيجة لجنوح الأفارقة للسلم، وحسن ظنهم بالخليفة، وإيمانهم بشعار أن طاعة أولي الأمر واجبة، جاء الفعلان (خليناهم/ أحببنا) ليبيّن الأول منهما استلابهم، والثاني حسن نواياهم، وحرصهم على الحفاظ على السلم.

أما أفعال الطرف الآخر (عمدوا/ يبقرون/ يطلبون/ يقتلون/ ساموا/ يأخذوا) فيمكن قسمتها إلى أفعال تدل على القصد والتعمد (عمدوا/ يطلبون/ يأخذوا)، وأفعال تدل على الوحشية (يبقرون/ يقتلون/ ساموا)، وهي بذلك تختزل سياسة ولاة بني أمية وعمالهم، فهم قصدوا بالذات أخذ ماشية أهل أفريقية التي تشكل لهم مصدر دخل مهم، والتي يبذلون جهداً في تربيتها، كما سعوا وطلبوا بإلحاح شديد ومستمر السخال الصغار للحصول على الفراء، وأخيراً أخذوا غصباً البنات. وبعد الطلب والأخذ جاء دور البقر والقتل بوحشية دون شعور بالرحمة والرأفة تجاه تلك الحيوانات الصغيرة أو مالكيها، فوقع بدل القتل قتلان: أولهما قتل حقيقي للماشية، وثانيهما قتل معنوي لمالكيها.

وجاءت الضمائر في الرسالة لتكشف عن زهد أهل أفريقية بمتاع الدنيا، ففي كل موضع تحدثوا فيه عن مواطن ظلم المرادي لهم، استخدموا ضمير الغائب (الهاء وهو)، فحين حرمهم من النقل قالوا: (فإذا أصابوا نفلهم دوننا وقال: هم أحقّ به؛ فقلنا: هو أخلص لجهادنا، لأننا لا نأخذ منه شيئاً، إن كان لنا فهم منه في حل؛ وإن لم يكن لنا لم نردّه). ولما أمرهم بالتقدم وأخر جنده قالوا: (تقدّموا، فإنه ازدياد في الجهاد)، واستخدموا أسلوب التعجب بمعنى الاستخفاف والاستهزاء حين تعرضوا لماشيتهم فقالوا: (ما أيسر هذا لأمير المؤمنين!) وهم في الحقيقة يحترقون من الداخل، ويكشف استخدامهم اسم

ويده الرسالة بـ (أبلغ أمير المؤمنين)، جاء منسجماً مع غايتهم من الزيارة، إذ رغبوا في معرفة رأي الخليفة بما وقع عليهم من ظلم أكثر من تفصيل القول في المظالم نفسها، وهذا ما يؤيده قولهم في نهاية الشكوى: (فأحببنا أن نعلم: أعن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا؟).

رغم كل ما أوقعه المرادي في أهل أفريقية إلا أنهم ظلوا على الولاء حتى مغادرتهم دمشق خائبين، وقد أعلنوا الولاء منذ بداية حديثهم حين استخدم متحدثهم ضمير المتكلم (نا) في قوله: (أميرنا)، لكنهم حين صدوا عادوا وفي نفوسهم شيء من الخليفة.

وكانت عنصرية عمر المرادي والتميز بين جنده من الأفارقة والعرب أول المظالم التي عرضها الوفد في شكايتهم، وجاء البناء الفني للرسالة ليؤكد تخلي المرادي عن فكرة الأخوة في الإسلام، وتبنيه فكرة التمييز والتفرقة من خلال حركة الضمائر؛ إذ يغلب على الرسالة عند الحديث عن الجند استخدام ضميري المتكلم والغائب على التوالي: (نا: أميرنا/ يغزو/ بنا/ فقلنا/ جهادنا/ حاصرنا/ وقينا/ أنفسنا/ كفيناهم)، (هم: نفلهم/ وقيناهم/ كفيناهم). وعلى الرغم من انتماء الأفارقة والعرب إلى جيش إسلامي واحد، إلا أن سياسة المرادي جعلتهم فرقتين: متحدّث/نا وكان حضورهم طاغياً في الرسالة، فهم أصحاب الشأن، ومتحدّث عنه/هم، وكانوا في حضرة الغياب، ليسوا بحاجة إلى الكلام أو الحضور، إذ هم مطمئنون إلى حصولهم على ما يريدون بيد السلطان وسوطه.

ولم يكتف المتحدث بإظهار الفرقة بين الجيش، والعنصرية التي تحكمهم، إذ يبدو أنه أراد أن يظهر للخليفة أن قبولهم بالأمر لم يكن جبناً أو ضعفاً، فعقد مقارنة خفية بين قومه وجند العرب، جاءت على النحو التالي:

الأفارقة: تنازلوا عن النقل لأنه (أخلص للجهاد) ويأتي بعد إعلاء كلمة الله، تقدموا عند القتال شجاعة، و(ازدياد في الجهاد)، ورغبة في الشهادة، وحماية لإخوة الدين وصوناً لهم ووقاية (ومثلكم كفى إخوانه، فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم)،

العرب: آثروا النقل، فكان جهادهم لمتاع دنيوي زائل في الدرجة الأولى، ورضوا في البقاء بالمؤخرة خوفاً وجبناً، ولم يراعوا أخوة.

وكأن لسان المتحدث يقول: إننا أفضل منهم، ومع ذلك رضينا بالظلم لأننا أحسننا الظن بالخليفة، ولم نأخذ خليفة يوماً بجريرة ولاتته، وكأنه بهذه المقارنة ينذر الخليفة ويتوعده، فهم لا يسعون وراء الدنيا ومتاعها، وهم ليسوا بالجبناء الذين يخافون خوض الحرب، بل هم قادرون على أخذ حقوقهم، وهذا ما حدث، ثاروا فاستقلوا وأنهوا حكم الدولة الأموية في بلادهم.

النفل (فقلنا: هو أخلص لجهادنا)، وفي المرة الثانية (التقدم) كان الرد فعلاً؛ إذ نفذوا الأمر فتقدموا (فقلنا: تقدوا)، وحين تعلق الأمر بأخذ الماشية، كان الرد استخفافاً بأهمية الماشية في مقابل إرضاء الخليفة (فقلنا: ما أيسر هذا لأمر المؤمنين!)، وآخر رد على قلنا جاء في الرسالة، كان استهجاناً واستغراباً للخروج على تعاليم الدين الإسلامي، واستعظماً لسبي بنات المسلمين من أجل متعة الخليفة (فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنة، ونحن مسلمون).

فكل مرة جاءت فيها (قال) بدون فاء كانت رداً على أسئلة طرحها الوفد على المرادي، ولم يجروها على التصريح بها أمامه، لكنه توقعها، فأجابهم إجابات أخرجهم بها. وكل (قلنا) جاءت مقترنة بالفاء كانت رداً على أسئلة طرحوها على أنفسهم لوهلة، ولم يجروها على التوقف عندها، أو الإطالة في طرحها، فانتقلوا انتقالاً سريعاً من السؤال إلى التنفيذ؛ وكأنهم خشوا على أنفسهم العصيان أو التمرد، أو شق عصا الطاعة، لا سيما وأنهم كانوا من أطوع البلدان وسمعها، فبادروا أنفسهم مسرعين بالتبريرات وتنفيذ الأوامر والحكمة في التصرف، حين آثروا الذهاب لمعرفة رأي الخليفة قبل الانقلاب عليه.

وبعد، فإن رسالة أهل إفريقية لم تكن رسالة هدفها الشكوى، وإطلاع الخليفة على واقعهم المرير، وإنما كانت رسالة إنذار وإعلان للخليفة، أعطوه بها فرصة لاتخاذ التدابير ورفع الظلم عنهم؛ ولذا بدعواها بأقوى أفعال التبليغ (بلغ) دونما حمدلة أو بسملة، ولم يكتفوا بذلك بل أقاموا مقارنة بينهم وبين جيش الخليفة العربي ليوقعوا في نفس الخليفة، فيرى مدى تضحيتهم وإخلاصهم في مقابل تخاذل العرب عن ذلك، وهم بذلك إنما أرادوا أن يبينوا له أن لا عذر له إن قبل فيما يفعله ولأته، فهم لم يصدر عنهم إلا كل طاعة، ومن وجه آخر هم لم يرضوا بهذا الظلم ضعفاً أو جنباً، فهم قادرين على الثورة، وإنما سكوتهم كان انصياعاً لطاعة أولي الأمر التي أمر الله بها في كتابه العزيز "يأيتها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم"⁽³¹⁾.

وجاءت الأساليب الفنية في الرسالة منسجمة مع مضمونها وهدفها، فعملت حركة الضمائر على بيان الظلم الواقع عليهم، وسياسة التمييز التي سار بها المرادي فيهم، كما أن المقابلة الخفية بين الفريقين أظهرت تميز الأفارقة على العرب، وبالتالي عدم استحقاقهم للظلم. وكان لأسلوب الشرط حضور في الكشف عن كثرة ما عانى أهل إفريقية من خلال توظيف (إذا) الشرطية، وأخيراً، أظهرت الفاء التسارع في قمع الأفارقة لما خطر في أذهانهم من أسئلة ولو لوهلة، حتى لا تكون الفرقة والخروج على الدولة.

الإشارة البعيد (ذلك) مرتين متتاليتين في الجملة نفسها (فاحتملنا ذلك، وخليناهم وذلك) عن القهر والاحتراق. وإذا كانوا أجبروا على تحمل قتل الماشية، فإنهم لم يستطيعوا تحمل سبي البنات لمتعة الخلفاء، وعظموا الأمر واستهجنوه قائلين: (أعن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا؟) مستخدمين اسم الإشارة (ذلك) من جديد.

وظف المتحدث أسلوب الشرط: إذا والفعل الماضي ليبين أن الظلم الواقع عليهم لم يكن طارئاً أو بسيطاً، فقال في حديثه عن النفل: (إذا أصاب نفلهم دوننا). ولما تكلم عن تقديمهم في الحرب، قال: (إذا حاصرنا مدينة، قال: تقدموا)، وقد ذهب بعض الدارسين إلى أن "إذا" في كلام العرب تستعمل للمقطوع بحصوله، وللكثير الحصول⁽³⁰⁾، ومادام الجهاد كان مما كثر وقوعه لإعلاء كلمة الله، فقد ترتب عليه كثرة التفتيل، ومن قبله كثرة التضحية بهم، وإيثارهم في الصفوف الأولى على العرب. وقد جاء فعل الشرط وجوابه في المثال الأول (أصاب و نفلهم) في الزمن الماضي لغرض بلاغي أرادته المتحدث، وهو أنهما جاءا للتوكيد على أنهما حاصلان لا محالة بدلالة الماضي من أجل التوكيد.

وأقنع أهل إفريقية أنفسهم بصرف النظر عن النفل، والموافقة على إعطائه لجند المرادي العرب، فقالوا: (إن كان (النفل) لنا فهم منه في حل، وإن لم يكن لنا لم نرد)، وجاء أسلوب الشرط ليبين حالة الشك التي وقع فيها القوم، ولم يقصد المتحدث تعليق الأمر على وقوع الشرط، إذ إن مفهوم الكلام: وإن لم تنتبثوا من حقم فلا بأس، فيكون التنازل عن النفل مباحاً لا حرج فيه، ويكون القصد حفزهم على التنازل والرضا بذلك.

وعند استعراض كل (قال) أو (قلنا) في الرسالة نجد كلاً منها جاءت على نمط، أما (قال) فجاءت غير مقترنة بالفاء، في حين أن كل (قلنا) جاءت مقترنة بالفاء. وفي كل مرة جاءت فيها (قال) أعقبها إجابة صادرة عن عامل هشام المرادي على سؤال محذوف، يمكن استنتاجه من السياق، فحين قال المتحدث: (... فإذا أصاب نفلهم دوننا، وقال: هم أحق به) يفهم وكأن الوفد سألو المرادي لماذا؟ فأجابهم هذه الإجابة الصارمة التي قطعتم، ولم يملكو أمامها سوى الانصياع للأمر، بل وتبريره. ولما أمرهم بالتقدم (... إذا حاصرنا مدينة قال: تقدموا وأخر جنده)، يبدو أنهم سألو عما يفعلونه بعد الحصار، فكانت الإجابة التقدم، ومرة أخرى لم يملكو سوى التنفيذ.

وفي كل مرة جاءت فيها (قلنا) مقترنة بالفاء، أعقبها إجابة الوفد على أسئلة طرحوها في دواخلهم، أعقبوها بإجابات سريعة مثلت رد فعلهم على أوامر المرادي، وقد تعددت أشكال الرد: ففي المرة الأولى (النفل) كان الرد تبريراً لمحاسن التنازل عن

الهوامش

- (17) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ط1، ج2، ص 485 - 486.
- (18) أخو زهية، شعر الشكوى الاقتصادية في صدر الإسلام والعصر الأموي، ص 185 - 255.
- (19) القيرواني، تاريخ أفريقيا والمغرب، ص 109.
- (20) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج6، ص 119.
- (21) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج6، ص 119.
- (22) سورة الحجرات، آية 10.
- (23) البخاري، صحيح البخاري، ط1، رقم الحديث 2446.
- (24) سورة آل عمران، آية 103.
- (25) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ط1، ج4، ص 142.
- (26) سورة الكهف، آية 46.
- (27) انظر، القرطبي، بداية المجتهد ونهاية المقتصد.
- (28) الطبري، تاريخ الطبري، ج4، ص 254-255.
- (29) السهيلي، الروض الأنف، ط1، ج4، ص 384.
- (30) فاضل السامرائي، لمسات بيانية، لمسات بيانية في سورة الليل، كتاب إلكتروني.
- (31) سورة النساء، آية 59.
- (1) الطبري، تاريخ الطبري، ط2، ج2، ص 328-329.
- (2) القرشي، فتوح مصر وأخبارها، ط1، ج1، ص 187.
- (3) البلاذري، فتوح البلدان، ص 316.
- (4) الطبري، تاريخ الطبري، ج4، ص 253.
- (5) الطبري، تاريخ الطبري، ج4، ص 254.
- (6) الطبري، تاريخ الطبري، ج4، ص 254.
- (7) الطبري، تاريخ الطبري، ج4، ص 254.
- (8) انظر في سياسة الأمويين في أفريقيا، القيرواني، الرقيق، تاريخ أفريقيا والمغرب، ط1.
- (9) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج4، ص 188.
- (10) الطبري، تاريخ الطبري، ج4، ص 97.
- (11) الطبري، تاريخ الطبري، ج4، ص 97.
- (12) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج1، ص 51-52.
- (13) الطبري، تاريخ الطبري، ج4، ص 254-255.
- (14) الطبري، تاريخ الطبري، ج4، ص 254-255.
- (15) الطبري، تاريخ الطبري، ج4، ص 97.
- (16) الطبري، تاريخ الطبري، ج4، ص 97.

المصادر والمراجع

- كلام المنان، تقديم عبد الله بن عزيز عقيل، 2002، ط1، مؤسسة الرسالة.
- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، الروض الأنف، تعليق مجدي بن منصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، 1968، ط2، دار المعارف، مصر.
- ابن عذاري المراكشي، أبو العباس أحمد، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق إز بروفنسال وح، س. كولان، 1948، بيروت.
- القرشي، أبو القاسم، فتوح مصر وأخبارها، تحقيق محمد الحجيري، 1996، ط1، دار الفكر، بيروت.
- القرطبي، أبو الوليد محمد بن أحمد، 1999، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، دار ابن حزم.
- القيرواني، الرقيق، تاريخ أفريقيا والمغرب، تحقيق محمد زينهم ومحمد عزب، 1994، ط1، دار الفرجاني.
- القرآن الكريم.
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، 1987، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت.
- البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس، الطباع، 1987، مؤسسة المعارف، بيروت.
- ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، مراجعة سهيل زكار، 2000، دار الفكر، بيروت.
- أخوزهية، راندة، 2003، شعر الشكوى الاقتصادية في صدر الإسلام والعصر الأموي، رسالة دكتوراة.
- السامرائي، فاضل، لمسات بيانية، لمسات بيانية في سورة الليل، كتاب إلكتروني.
- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير

The Letter of African People in the Complaint

*Raedah M. Akhu Zahya **

ABSTRACT

The importance of African people letter for Hisham bin Abdul Malik is related to the fact that it was the only witness of the African complaint about that policy and the governors of the Umayyads and their workers. The sender of the letter was able to start revolution in their country, thus tightened their grip on the region later in a specified period of time, and they removed all manifestations of Umayyad rule.

The current research assessed the message from both objective and technical aspects. The study tried to stand on the injustices African workers suffered from Umayyads policy, how they dealt with these injustices, and their reactions to it. The study also tried to show the role of technical consciences, and style of the condition, and saying to express the people of African suffering.

Keywords: Letter, African People, Complaint.

-
- Faculty of Arts, The Hashimite University, Zarqa, Jordan. Received on 15/11/2011 and Accepted for Publication on 29/5/2013.